الفصل السادس والعشرون

عفة القلب

العفة وقاية للقلب من خسيس الرغبات، ونزاهة ونظافة له عن دنيء الشهوات، إنها آنِفَةُ القلب واستنكافه عن فعل ما يشينه ويعيبه، إنها استعلاء إيماني على جواذب الشهوات ودواعيها، والعفيف مستريح الضمير هادئ القلب، قريب من ربه، قاهر لشيطانه وعدوه، ودوافع السوء في نفسه، ومن غلب نفسه وملك قيادتها وذللها بالعبودية لله فقد تمت سعادته في الدنيا والآخرة، وما أحوجنا في هذه الأيام أيام الشهوات المستعرة المقننة تلك التي أصبح لها جنود يشيعونها في الذين آمنوا، ولها مؤسسات تبثها وتزينها حتى تفتك بالإيمان في قلوب قوم مؤمنين في عصر الانفتاح وعصر الفضائيات، وعصر الجرأة العجيبة في بث الخبث، في أيام الإنترنت والشات والمجلات والجوالات، صارت الفتن تحيط بالمسلم من كل اتجاه وفي كل وقت وبأكثر من لون، فرحماك اللهم بنا وبشباب المسلمين.

ما العفة؟

العفة لغة: النزاهة والكف عما لا يحل ويجمل، والعفاف: هو الكف عن الحرام والسؤال من الناس[(١)].

واصطلاحًا: كف النفس ومنعها عن غلبة الشهوة والحرص نزاهةً وأنفةً ورعايةً لنظر الله جَلَّجَلَالُهُ، قال الراغب: العفة: حصول حالة للنفس تمتنع بها عن غلبة الشهوة والمتعفف هو المتعاطي لذلك بضرب من الممارسة والقهر[(٢)]، وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: النفوس الشريفة لا ترضى من الأشياء إلا بأعلاها وأفضلها وأحمدها عاقبة، والنفوس الدنيئة تحوم حول الدناءات، وتقع عليها كما يقع الذباب على الأقذار، فالنفس الشريفة العلية

(١) «انظر لسان العرب» (٤/ ٣٠١٥).

(٢) «المفردات» (٣٣٩).

لا ترضى بالظلم ولا بالفواحش ولا بالسرقة والخيانة لأنها أكبر من ذلك وأجل، والنفس المهينة الحقيرة الخسيسة بالضد من ذلك فكل نفس تميل إلى ما يناسبها ويشاكلها[١].

ثمرات العفة وفضائلها

للعفة ثمرات عظيمة تدعو إليها وتحث النفوس عليها، وفي ذكرها تربية للنفس على معالمها وبيان لأهميتها وضرورتها لكل سائر وسالك، وحين نتكلم عن الثمرات فإن المقصود بالعفة معناها العام، فليست محصورة في شهوة النساء فحسب، بل يدخل فيها شهوة المال والمنصب وحب الظهور وغير ذلك، ومن هذه الثمرات ما يلي:

أولًا - العفة طاعة لله ورسوله:

قال تعالى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النور: ٣٣]، وقال تعالى آمرًا عباده بكف الأبصار وغضها: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ [النور: ٣١].

وعن جرير بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سألت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن نظر الفجأة فقال: «**اصرف بصرك**»[٢]، وفي الأمر بالتعفف عن المال روى مسلم من حديث أبي بشر قبيصة بن المخارق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: تحمَّلت حمالة فأتيت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أسأله فيها فقال: «**قم حتى تأتينا الصدقة فنأمر لك بها**» ثم قال: «**يا قبيصة، إن المسألة لا تحل إلا لأحد ثلاثة: رجل أصابته جائحة اجتاحت ماله فحلت له المسألة حتى يصيب قوامًا من عيش، أو قال: سدادًا من عيش، ورجل أصابته فاقة فحلت له المسألة حتى يصيب قوامًا من عيش، أو قال: سدادًا من عيش، فما سواهن من المسألة يا قبيصة سحت يأكلها صاحبها سُحتًا**»[٣].

---

(١) «الفوائد» [٢٠١] ط دار إحياء الكتب العربية.

(٢) رواه مسلم برقم [٢١٥٩].

(٣) رواه مسلم برقم [١٠٤٤]، ومعنى تحمل حمالة: أن يتدخل للإصلاح بين فريقين وقع بينهما قتال ويتحمل هو دية القتلى فيدفعها من ماله حتى يقع الصلح.

ثانيًا- العفة سبيل للجنة وظل عرش الرحمن:

فعن ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ومن يكفل لي أن لا يسأل الناس شيئًا وأتكفل له بالجنة**» فقال ثويان: أنا، فكان لا يسأل أحدًا شيئًا[(١)].

وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وأهل الجنة ثلاثة: ذو سلطان مقسط متصدق موفق، ورجل رقيق القلب لكل ذي قربى ومسلم، وعفيف ذو عيال**»[(٢)].

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله**» وذكر منهم «**ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله**»[(٣)]، إن جزاء عفة النفس ونزاهتها عن الحرام وعن التذلل للخلق بالسؤال سبيل لعزتها في الآخرة ونيلها لهذا الشرف العظيم والفوز الكبير، والله لا يضيع أجر من أحسن عملًا.

ثالثًا- العفة سبيل للنجاة وحفظ الله لعبده:

من ثمرات العفة أن الله ينجي العبد من المحن والشدائد، ويعينه على الثبات فيها ويزيده عفة إلى عفته وإيمانًا إلى إيمانه، ومن أدلة هذا المعنى حديث الثلاثة من بني إسرائيل الذين آواهم المبيت إلى غار فدخلوه فانحدرت عليهم صخرة فسدت باب الغار، ففي هذا الحديث شاهدان: الأول عفة ذلك الرجل عن ابنة عمه برغم أنها كانت أحب الناس إليه وبرغم أنه أعطاها المال وقدر عليها وجلس منها مجلس الرجل من امرأته، لكنه يُذكَّر بالله فيتذكر، ثم يتعفف عن ذلك الفعل المحرم ابتغاء وجه الله ثم يترك المال الذي أعطاها، والشاهد الثاني ذلكم الرجل الذي استأجر أجيرًا ثم ثمَّر له ماله ولما جاء بعد حين من الدهر أعطاه ماله كله كاملًا غير منقوص، وعفَّ عن أخذ شيء منه وعف قبل

---

(١) رواه أبو داود [١٦٢٧]، وصححه الألباني في صحيح أبي داود [١٤٤٦].

(٢) رواه مسلم برقم [٢٨٦٥].

(٣) رواه البخاري برقم [٦٦٠]، ومسلم برقم [١٠٣٠].

ذلك عن جحده أو إعطائه القدر الذي تركه فقط، ولكنه الإخلاص في العفة وابتغاء وجه الله بالعمل، يقول رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**قال الآخر: اللهم إنه كانت لي ابنة عم كنت أحبها كأشد ما يحب الرجال النساء، فأردتها على نفسها فامتنعت مني حتى ألمَّتْ بها سَنَة من السنين فجاءتني، فأعطيتها عشرين ومائة دينار على أن تخلي بيني وبين نفسها، ففعلت، حتى إذا قدرت عليها** -وفي رواية: فلما قعدت بين رجليها- **قالت: اتق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه، فانصرفت عنها وهي أحب الناس إليَّ وتركت الذهب الذي أعطيتها، اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه، فانفرجت الصخرة غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها، وقال الثالث: اللهم استأجرت أجراء وأعطيتهم أجرهم غير رجل واحد ترك الذي له وذهب، فثمَّرت أجره حتى كثرت منه الأموال، فجاءني بعد حين فقال: يا عبد الله أدِّ إليَّ أجري فقلت: كل ما ترى من أجرك من الإبل والبقر والغنم والرقيق فقال: يا عبد الله، لا تستهزئ بي قال: لا أستهزئ بك، فأخذه كله فاستاقه فلم يترك منه شيئًا، اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه، فانفرجت الصخرة فخرجوا يمشون**»[(١)].

رابعًا- العفة سبيل إلى عون الله لعبده وإغنائه له:

قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ومن يستعفف يعفه الله**»[(٢)]، من استعفف فهو جدير بأن يعفه ربه ويغنيه ويجعل في قلبه القناعة والرضا، ويحبب إليه الإيمان ويزينه في قلبه، وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ثلاثة حق على الله عونهم: المجاهد في سبيل الله، والمكاتب يريد الأداء، والناكح يريد العفاف**»[(٣)].

---

(١) رواه البخاري برقم [٢٢١٥]، ومسلم برقم [٢٧٤٣].

(٢) رواه البخاري برقم [١٤٦٩]، ومسلم برقم [١٠٥٣].

(٣) رواه الترمذي برقم [١٦٥٥]، والنسائي برقم [٣١٢٠]، وابن ماجه برقم [٢٥١٨]، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» برقم [٣٠٥٠].

قال المباركفوري: هذه الأمور من الأمور الشاقة التي تفدح الإنسان وتقصم ظهره لولا أن الله تعالى يعينه عليها لا يقوم بها، وأصعبها العفاف لأنه قمع الشهوة الجبلية المركوزة فيه، وهي مقتضى البهيمية النازلة في أسفل السافلين، فإذا استعف وتداركه عون الله تعالى ترقى إلى منزلة الملائكة وأعلى عليين[١].

خامسًا- العفاف من أصول الرسالة النبوية:

من أهم وأرسخ المعالم التي جاء رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليرسيها العفاف، حتى لقد أصبح هذا الأمر معلومًا عند المشركين مستقرًا في نفوسهم، كما شهد بذلك أبو سفيان بن حرب -وهو لا يزال على الشرك- حينما دخل على هرقل عظيم الروم وسأله هرقل: بماذا يأمركم؟ قال: قلت يقول: اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئًا: واتركوا ما يقول آباؤكم، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة[٢]، ولكرامة العفاف ولعظيم فضله دعا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ربه سائلًا إياه، كما عند مسلم في الصحيح عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه كان يقول: «**اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى**»[٣].

سادسًا- العفة عزة للنفس وطمأنينة للقلب:

العفيف مطمئن القلب مستريح الضمير هادئ الخاطر، ساكن النفس لا يعتريه القلق والضجر والهموم المكدرة المؤلمة، يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: إن للعفة لذة أعظم من لذة قضاء الوطر، لكنها لذة يتقدمها ألم حبس النفس ثم تعقبها اللذة، وأما قضاء الوطر فبالضد من ذلك[٤]، وفي جانب المال تكون العفة عزة كذلك، لأن التعرض لسؤال

---

(١) «تحفة الأحوذي» (٥/ ٤٦) ط التوفيقية.

(٢) رواه البخاري برقم [٧].

(٣) رواه مسلم برقم [٢٧٢١].

(٤) «روضة المحبين» [٣٤٤].

الناس مذلة ومهانة قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقى الله وليس في وجهه مزعة لحم**»(١)، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا تلحفوا في المسالة فوالله لا يسألني أحد منكم شيئًا فتخرج له مسألته مني شيئًا وأنا له كاره فيبارك له فيما أعطيته**»(٢)، وبين النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن كسب العبد للمال خير له وأكرم من التعرض لسؤال الناس حتى وإن كان ذلك الكسب قليلًا ضئيلًا فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لأن يأخذ أحدكم حبله فيأتي بحزمة الحطب على ظهره فيبيعها فيكف الله بها وجهه، خير له من أن يسأل الناس، أعطوه أو منعوه**»(٣).

العفة عن سؤال الناس

من نبل النفس وشرفها تعففها عن سؤال الناس وانصرافها عن الالتفات إلى ما في أيديهم، وتعلق القلب بالله وحده، ففي الصحيحين عن حكيم بن حزام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سألت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأعطاني ثم سألته فأعطاني، ثم قال: «**يا حكيم، إن هذا المال خضر حلو، فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه وكان كالذي يأكل ولا يشبع، واليد العليا خير من اليد السفلى**»، قال حكيم فقلت: يا رسول الله، والذي بعثك بالحق لا أرزأ أحدًا بعدك حتى أفارق الدنيا، فكان أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يدعو حكيمًا ليعطيه العطاء فيأبى أن يقبل منه شيئًا، ثم إن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ دعاه ليعطيه فأبى أن يقبله فقال: يا معشر المسلمين أشهدكم على حكيم أني أعرض عليه حقه الذي قسمه الله له في هذا الفيء فيأبى أن يأخذه، فلم يرزأ حكيم أحدًا من الناس بعد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى توفِّيَ(٤).

---

(١) رواه البخاري برقم [١٧٧٤]، ومسلم برقم [١٠٤٠].

(٢) رواه مسلم برقم [١٠٣٨].

(٣) رواه البخاري برقم [١٤٧١].

(٤) رواه البخاري برقم [١٤٧٢]، ومسلم برقم [١٠٣٥].

وعن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعطيني العطاء فأقول: أعطه أفقر إليه مني، حتى أعطاني مرةً مالًا فقلت: أعطه أفقر إليه مني، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**خذه، وما جاءك من هذا المال وأنت غير مشرف ولا سائل فخذه، وما لا فلا تتبعه نفسك**»(١)، إنها عفة عمرية تنطق بنبله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وعزة نفسه وشرفها وتأمل هذا المشهد الآتي تقف فيه على صدق العفة وجلال العفاف عن هؤلاء الصحب الكرام، روى مسلم من حديث أبي عبد الرحمن عوف بن مالك الأشجعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كنا عند رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تسعة أو ثمانية أو سبعةً فقال: «**ألا تبايعون رسول الله** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟» وكنا حديث عهد ببيعة فقلنا: قد بايعناك يا رسول الله ثم قال: «**ألا تبايعون رسول الله؟**» فبسطنا أيدينا وقلنا: قد بايعناك يا رسول الله فعلام نبايعك؟ قال: «**على أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا، والصلوات الخمس، وتطيعوا**» وَأَسَرَّ كلمة خفية: «**ولا تسألوا الناس شيئًا**»، فلقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط سوط أحدهم فما يسأل أحدًا يناوله إياه(٢)، فانظر كيف استجاب أولئك النفر لهذه التربية النبوية على خلق العفة والاستعفاف والترفع عن المذلة للخلق، حتى لو كان الشيء المسئول صغيرًا، إنه توجيه إلى سُمُوّ النفس عن مهانة السؤال، واستعلائها عن الالتفات إلى أحد من الناس، فياله من معنى عظيم ما أحوجنا إلى مثله!

وعند النسائي وأبي داود عن رجل من بني أسد قال: نزلت أنا وأهلي ببقيع الغرقد فقال لي أهلي: اذهب إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فسله لنا شيئًا نأكله فذهبت إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فوجدت عنده رجلًا يسأله ورسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**لا أجد ما أعطيك**»، فَوَلَّى الرجل عنه وهو مغضب وهو يقول: لعمري إنك لتعطي من شئت فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يغضبُ علي أن لا أجد ما أعطيه، من سأل منكم وله أوقية أو**

---

(١) رواه البخاري برقم [٧١٦٤]، ومسلم برقم [١٠٤٥].

(٢) رواه مسلم برقم [١٠٤٣].

عِدلُها فقد سأل إلحافًا»، قال الأسدي فقلت: لَلقحة لنا خير من أوقية، والأوقية أربعون درهمًا، فرجعت ولم أسأله، فقدم على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد ذلك شعير وزبيب، فقسم لنا منه حتى أغنانا الله عَزَّوَجَلَّ[(١)].

صفحات من العفة عن الشهوة المحرمة

أيها الإخوة؛ العفة هي كف النفس عن المحرمات وعما لا يجمل بالمسلم فعله، ومنها العفة عن اقتراف الشهوة المحرمة، وهذه العفة واجبة على الشاب والشابة والمتزوج والمتزوجة وعلى كل فرد وَحَّدَ الله جَلَّجَلَالُهُ إن العفة هي زينة المسلم وكرامته في الدنيا والآخرة، ومن أتبع نفسه هواها وأشبع شهواتها هلك مع الهالكين، وأصبح من النادمين، يقول يحيى بن معاذ الرازي: من أرضى الجوارح في اللذات؛ فقد غرس لنفسه شجر الندامات.

وقال أبو علي الدَّقَاق: من ملك شهوته في حال شبيبته صَيَّره الله ملكًا في حال كهولته كيوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [يُوسُف: ٩٠]، وفي ذم الهوى لابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ: إن لله عَزَّوَجَلَّ يومًا لا ينجو من شره منقاد لهواه، وإن أبطأ الصرعى نهضة يوم القيامة صريع شهوة.

وقال أحمد بن خضرويه: لا نوم أثقل من الغفلة ولا رق أملك من الشهوة، ولولا ثقل الغفلة لم تظفر بك الشهوة.

وقال إبراهيم القصار: أضعف الخلق من ضعف عن رد شهوته وأقوى الخلق من قوي على ردها[(٢)].

---

(١) رواه أبو داود برقم [١٦٢٧]، والنسائي (٥/ ٩٨)، وصححه الألباني في «صحيح أبي داود» برقم [١٤٣٣].

(٢) «ذم الهوى» [٢٩-٣٢] ط دار المنار.

إن فتنة النساء من أخطر وأشد الفتن بل إنها أضر فتنة على الرجال كما في الصحيحين من حديث أسامة بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء**»(١).

ولذلك كان خوف السلف شديدًا جدًا من هذه الفتنة قال معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أخوف ما أخاف عليكم فتنة النساء إذا تسوَّرن الذهب ولبسن رياط الشام وعصب اليمن(٢).

وعن علي بن زيد عن سعيد بن المسيب قال: ما يئس الشيطان من شيء إلا أتاه من قِبل النساء وقال لنا سعيد وهو ابن أربع وثمانين سنة وقد ذهبت إحدى عينيه وهو يعشو بالأخرى: ما من شيء أخوف عندي من النساء(٣).

وقد تقدم ذكر خبر نبي الله يوسف صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع امرأة العزيز، وكذلك خبر مرثد الغنوي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مع عِناق، ومن شواهد هذا المعنى قال محمد بن إسحاق: نزل السَّرِي بن دينار في درب بمصر، وكانت فيه امرأة جميلة فتنت الناس بجمالها فعلمت به المرأة، فقالت: لأفتننه، فلما دخلت من باب الدار تكشفت وأظهرت نفسها فقال: مالك؟ فقالت: هل لك في فراش وَطِيّ وعيش رَخِيٍّ فأقبل وهو يقول:

وكم ذى معاص نال منهن لذة ... ومات فخلاها وذاق الدَّواهيا
تصرم لذات المعاصي وتنقضي ... وتبقى تبعات المعاصي كما هيا
فيا سوءتا والله راءٍ وسامع ... لعبد بعين الله يغشى المعاصيا(٤)

---

(١) رواه البخاري برقم [٥٠٩٦]، ومسلم برقم (٢٧٤٠).

(٢) «صفة الصفوة» (١/ ٤٩٧) ورياط الشام: جمع ريطة وهي الملاءة إذا كانت قطعة واحدة، أو هي كل ثوب رقيق لين، وعصب اليمن نوع من برود اليمن مخطط.

(٣) «صفة الصفوة» (٢/ ٨٠).

(٤) «روضة المحبين» [٣٣٩].

قال خارجة بن زياد -رجل من بني سلمة-: هويتُ امرأة من الحي، فكنت أتبعها إذا خرجت من المسجد، فعرفت ذلك مني، فقالت لي ذات ليلة: ألك حاجة؟ قلت: نعم، قالت: وما هي؟ قلت: مودتك، قالت: دع ذلك ليوم التغابن، قال: فأبكتني والله فما عدت إلى ذلك.

وقال أعرابي: خرجت في بعض الليالي المظلمة فإذا أنا بجارية كأنها علم، فأردتها على نفسها فقالت: ويلك! أمالك زاجر من عقل إذا لم يكن لك ناه من دين فقلت: إيهًا والله ما يرانا إلا الكواكب قالت: فأين مكوكبها؟!

عفة تفوق الخيال

غضب الخليفة على أهل بلخ لحادث أحدثوه فبعث إليهم من يغرمهم مغرمًا فادحًا فبلغ موفد الخليفة إلى مدينة بلخ، فأتى نساؤها وصبيانها إلى امرأة غنية وشكوا حالهم ومالحقهم من هذا المغرم، فبعثت المرأة إلى الأمير الذي جاء برسم تغريمهم بثوب لها مرصع بالجواهر قيمته أكثر مما أمر بتغريمه، فقالت له: اذهب بهذا الثوب إلى الخليفة فقد أعطيته صدقة عن أهل بلخ لضعف حالهم، فذهب بالثوب إلى الخليفة وألقاه بين يديه وقص عليه القصة فخجل الخليفة وقال: ليست المرأة أكرم منا وأمره برفع الغرم عن أهل بلخ، وإرجاع الثوب إلى المرأة وأسقط عن سكان هذه المدينة خراج سنة، فعاد الأمير إلى بلخ، وأتى منزل المرأة وقص عليها مقالة الخليفة ورد إليها الثوب، فقالت له: أوقع بصر الخليفة على هذا الثوب؟ قال: نعم، فقالت: لا ألبس ثوبًا رآه غير ذي محرم مني وأمرت ببيعه فَبُنِيَ منه مسجدًا.

تأمل في هذا المشهد العجيب لهذه الحرة العفيفة الأبية الحيية وقارنه بما تراه اليوم من نساء بعض المسلمين اللاتي يمشين في الطرقات والأسواق والجامعات والمدارس والمعاهد كاسيات عاريات فاتنات مفتونات غافلات سادرات، تزني بهن الأعين الخائنة وتتلصص بهن النظرات الشائنة، وذلك بسبب تبرجهن الأثيم وظهور زينتهن للناظرين

فرحم الله نساء كانت تعف إحداهن أن يرى رجل ثوبها الجميل وهدى الله نساءً صرن يعرضن أجسادهن وثيابهن لكل ناظر وسائر.

الشمعة واعظ صامت

هذا شاب صالح قد تأهل للدراسة العليا على يد أحد المشايخ وكان لابد من السفر إليه، وهذا يعني بعده عن والديه الصالحين اللذين ربياه على التعلق بالمسجد ومجالسة العلماء وملازمة حلق الذكر، وكانت بداية حياته الجديدة صعبة ومؤرقة ومع الاستعانة بالله تيسرت أمام همة طلب العلم، استقر هذا الشاب الصالح في غرفة صغيرة تحتضن كتبه العلمية، ومضت الأيام على أحسن حال، فلقد أحبه الجيران وأحبه رفاقه من طلبة العلم واهتم به شيخه ولكن... ولكن هناك فتاة حسناء مراهقة أصبحت تسمع عن أخلاقه الكثير والكثير فانشغلت بخاطرة شيطانية وهي: كيف السبيل للتعرف عليه؟ وكانت هذه الخاطرة تعني أن هذا الشاب مقبل على فتنة صعبة، إنه شاب أتاه الله جمالًا في الخَلق والخُلُق وهو في غربة عن بني قومه، والفتاة حسناء بعيدة عن أنظار والديها وتقطن بجوار بيت الشاب الصالح، فكرت هذه الفتاة وقدرت وأصبحت تتصيد الفرص، وبينما هو سائر أمام بيتها في إحدى المرات إذ بها تدعوه وكأنها تطلب المساعدة لإدخال أغراضها فأمرها قبل الدخول إلى بيتها بستر مكان النساء وإبعادهن عن المدخل، وقام الشاب بقضاء حاجتها المزعومة فحمل الحمل وأدخله إلى بيتها غاضًا بصره، ثم وَلَّى مسرعًا إلى الخارج ولم ينتظر ردًا أو شكرًا، وهكذا فشلت المؤامرة الأولى، فأصرت هذه الفتاة على الإيقاع بهذا الشاب مهما كان الثمن، وفي ليلة مظلمة شديدة البرد وبينما الأمطار تتساقط والرعد يضيء بين الحين والحين بصوته المفزع، وبينما هذا الشاب الصالح قد أضاء شمعة يقرأ تحت ضوئها إذ بالباب يطرق فقطع الأفكار والاستذكار واتجه إلى بابِ غرفته فإذا بالفتاة أمامه تتباكى وتقول إنها طرقت بيتها مرات عديدة ولا مجيب ولا تجد ملجأ تلجأ إليه، وهنا اهتز قلب الشاب وارتجفت جوارحه واختلطت عليه الأمور من هول الصدمة

وفي خضم المفاجأة إذا بها تدخل وتلقي بنفسها على الأرض كأنما أعياها التعب فقال الشاب: ماذا أفعل وكيف أنجو من هذه الفتنة. غض بصره والتفت عن يمينه وجمع نظره على شمعته المضيئة فإذا لهيبها كأنها يحادثه ويذكره بتقوى الله عَزَّوَجَلَّ وأنه على عذاب النار لا يقوى، قال تعالى: ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِيٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [البَقَرَة: ٧٥]، اقترب هذا الشاب الصالح من شمعته ووضع أصبعه فوق شعلتها وصرخ فزعًا من شدة الألم ثم فر إلى خارج الغرفة والفتاة مستلقية ترقبه بتعجب، ثم خرجت راجعة إلى بيتها وهي تبكي ندمًا على ما قدمت يداها وقد وقاه الله شرها، ونجا الشاب الصالح من كيدها قال تعالى: ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يُوسُف: ٦٤].

ثبات العفة

عن عاصم الأحول قال: كنا ندخل على حفصة بنت سيرين وقد جعلت الجلباب هكذا وتنقبت به فنقول لها: رحمك الله، قال تعالى: ﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾ [النُّور: ٦٠]، هو الجلباب، قال فتقول: أيُّ شيء بعد ذلك؟ فنقول: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [النُّور: ٦٠]، فتقول: هو إثبات الحجاب.

ولما كان العلامة الكاساني في حلب طلبت منه زوجته الفقيهة فاطمة بنت السمرقندي الرجوع إلى بلاده، فلما همَّ بذلك استدعاه الملك العادل نور الدين، وسأله أن يقيم بحلب، فعرفه أنه لا يقدر على مخالفة زوجته، إذ هي بنت شيخه، فأرسل الملك إلى فاطمة خادمًا بحيث لا تحتجب منه ويخاطبها عن الملك في ذلك فلم تأذن للخادم، وأرسلت إلى زوجها تقول له: أَبَعُدَ عهدك بالفقه إلى هذا الحد؟ أما تعلم أنه لا يحل أن ينظر إليَّ هذا الخادم؟! وأي فرق بينه وبين الرجال في عدم جواز النظر؟ فأرسل إليها الملك امرأة لتكلمها في هذا.

منهج الاستعفاف وسبيل العفة

لقد شرع الإسلام العظيم سبلًا آمنة تحفظ المؤمن من الوقوع في براثن هذه الفتنة المهلكة الموبقة، وتعددت الإجراءات الوقائية في الشريعة للحماية من هذه الرذيلة، وما وقعت قط هذه الفتنة إلا بسبب التخلي عن هذه القواعد والأصول التي اختطها الإسلام لحفظ الإيمان والعرض وحفظ النفس من عذاب الله، ومن الأمور التي تعين على العفاف ما يلي:

أولًا - الزواج:

الزواج حصن حصين، وسبيل مأمون يعصم من نزغات الشياطين، ولهذا حث الإسلام عليه ودعا إليه ورغب فيه، قال تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النور: ٣٢]، وفي الصحيحين من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه له وجاء**»(١).

ولهذا يقول ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لو لم يبق من أجلي سوى عشرة أيام أعلم أني أموت بعدهن لتزوجت مخافة الفتنة.

فعلى الشاب أن يحرص على الزواج ولو كان بأقل الإمكانيات حتى ولو كان سيتزوج امرأة ثيبًا، فكل ذلك خير له، لأن الزواج أمان، قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن المرأة تقبل في صورة شيطان وتدبر في صورة شيطان، فإذا رأى أحدكم امرأة فأعجبته فليأت أهله فإن ذلك يردُّ ما في نفسه**»(٢).

---

(١) رواه البخاري برقم [١٩٠٥]، ومسلم برقم [١٤٠٠].

(٢) رواه مسلم برقم [١٤٠٣].

ثانيًا- غض البصر:

البصر نافذة القلب، والنظرة المحرمة تحدث فيه الفساد وتهيجه إلى الحرام وأعطت الفرصة للشيطان لغرس بذوره الخبيثة في هذا القلب حتى تثمر السوء والفحشاء، فإذا غض المرء بصره حفظ قلبه وسلم من وساوس الشيطان وكيده وزكت نفسه وطهر قلبه قال تعالى: ﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ﴾ [النور: ٣١]، إن النظرة هي رائد الشهوة ورسولها، ومن أطلق بصره عذب نفسه ودامت حسراته يقول جرير بن عبد الله: سألت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن نظرة الفجأة فأمرني أن أصرف بصري[(١)]، وفي الصحيحين أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أردف الفضل بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يوم النحر خلفه على عجز راحلته، وكان الفضل رجلًا وضيئًا، فوقف النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للناس يفتيهم وأقبلت امرأة من خثعم وضيئة تستفتي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فطفق الفضل ينظر إليها وأعجبه حسنها، فالتفت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والفضل ينظر إليها فأخلف بيده فأخذ بذقن الفضل فعدل وجهه عن النظر إليها، فقالت: يا رسول الله إن فريضة الله في الحج على عباده أدركت أبي شيخًا كبيرًا لا يستطيع أن يستوي على الراحلة فهل يقضيَ عنه أن أحج عنه؟ قال: «**نعم**»[(٢)].

وفي رواية لعلي بن أبي طالب قال: ولوى عنق الفضل، فقال له العباس: يا رسول الله لم لويت عنق ابن عمك؟ قال: «**رأيت شابًا وشابة فلم آمن الشيطان عليهما**»[(٣)].

يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في تعديد فوائد غض البصر: أحدها: تخليص القلب من ألم الحسرة، فإن من أطلق بصره دامت حسرته، فأضر شيءٍ على القلب إرسال البصر، فإنه يريه ما يشتد طلبه له ولا صبر له عنه ولا وصول له إليه وذلك غاية ألمه وعذابه،

---

(١) رواه مسلم برقم [٢١٥٩].

(٢) رواه البخاري برقم [٦٢٢٨].

(٣) رواه الترمذي برقم [٨٨٥]، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» [٣٤٦٧].

قال الأصمعي: رأيت جارية في الطواف كأنها مهاة، فجعلت أنظر إليها وأملأ عيني من محاسنها، فقالت لي: يا هذا ما شأنك؟ قلت: وما عليك من النظر؟ فأنشأت تقول:

وكنت متى أرسلت طرفك رائدًا ... لقلبك يومًا أتعبتك المناظر

رأيت الذي لا كله أنت قادر ... عليه ولا عن بعضه أنت صابر

والنظرة تفعل في القلب ما يفعل السهم في الرمية فإن لم تقتله جرحته وهي بمنزلة الشرارة من النار ترمى في الحشيش اليابس فإن لم تحرقه كله أحرقت بعضه كما قيل:

كل الحوادث مبداها من النظر ... ومعظم النار من مستصغر الشرر

كم نظرة فتكت في قلب صاحبها ... فتك السهام بلا قوس ولا وتر

والمرء ما دام ذا عين يقلبها ... في أعين الغيد موقوف على الخطر

يسرُّ مقلته ما ضر مهجته ... لا مرحبًا بسرورٍ عاد بالضرر[1]

ثالثًا- ملء الفراغ:

الفراغ مهلكة مفسدة فإذا كان في الشباب كان ضرره أشد وخطره أعظم فإنه متى خلا بنفسه هجمت عليه الخواطر السيئة، فتحرك الشهوة وتهيج الغريزة وتوقعه في الإثم.

إن الشباب والفراغ والجدة ... مفسدة للمرء أي مفسدة

فلا بد من طرد الفراغ بالعمل والمسارعة إلى الطاعات، فالمشغول لا يشغل، ومن انشغل بالحق لم يجد وقتًا لتُرَّهات الباطل، قال الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: نفسك إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل.

لذلك أقول: أشغل عينك بالحق بالنظر في المصحف والتدبر في الآيات ومطالعة كتب العلماء الربانيين، والتأمل في خلق الله عَزَّوَجَلَّ، وليكن لسانك مشغولًا بالذكر والتلاوة، والاستغفار والتسبيح والدعوة والنصح والبلاغ، وليكن شغل عقلك

(١) «روضة المحبين» [٩٧] ط دار الكتب العلمية.

وفكرك وجوارحك كلها بطاعة الله عَزَّوَجَلَّ، لا تقعد فارغًا، لا تكن بطالًا، اطرد الفراغ بالعمل، واطرد الكسل بالحزم والعزم والاستعانة بالله جَلَّجَلَالُهُ، اخرج من سجن الأوهام والخواطر، تخلص من وساوس الشيطان ومكائده وكن قريبًا من رحمة الله.

رابعًا- اعتزال قرناء السوء والبيئة الفاسدة:

الإنسان ابن بيئته، والصاحب ساحب، ومن أشد ما يضر المرء ويجره إلى المعاصي والسيئات البيئة الفاسدة وأصحاب السوء الذين يوسوسون له بالشر ويزينون له الفساد، ومن صاحبهم وجالسهم أخذ طبعه من طباعهم وأخلاقه من أخلاقهم ونسب إليهم وكان منهم فإنما يعرف المرء بجلسائه وأصدقائه.

ومن صحب الصالحين كان منهم وانتفع بهم وبالنظر إليهم ومجالستهم، قال عليّ ابن الحسين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنما يجلس الرجل إلى من ينفعه في دينه.

إن ترك البيئة الفاسدة والتحول عنها إلى بيئة طاهرة تقية مهذبة سبيل عظيم من سبل العفاف، فينبغي على المسلم أن يفر من المكان الموبوء ولا يجوز له أن يعرض نفسه للفتنة بمجالسة أهل السيئات؛ ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [الحَدِيد: ١٤]، وإن مما يعين على العفاف جلساء صالحون يذكرونك بلقاء الله، يتلفظون بالحق، يقولون به وبه يعملون، أولئك الذين لا تسمع في مجالسهم غيبة ولا نميمة ولا سبًا ولا شتمًا ولا فحشًا، فواجب على الشاب العازم على سلوك طريق الاستقامة أن يبحث عن هؤلاء وليحرص على صحبتهم وليعلم أنهم نعمة من الله عليه فليحفظ النعمة وليشكرها.

خامسًا- تجنب المثيرات:

إن الانحراف الجنسي يبدأ بمثير يثير كوامن الشهوة في النفس ومن أجل ذلك حرم الإسلام كل مقدمات الزنا وما يُقَرِّبُ إليه، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ

فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء: ٣٢]، ومن هذه المثيرات الاختلاط والخلوة، قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إياكم والدخول على النساء**»، فقال رجل من الأنصار أفرأيت الحمو؟ قال: «**الحمو الموت**»(١)، والحمو قريب الزوج الذي لا يحل للمرأة، فبين النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه يفسد الحياة الزوجية كما يفسد الموت البدن، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ألا لا يخلون رجل بامرأة إلا كان ثالثهما الشيطان**»(٢)، ومن هذه المثيرات ارتياد الأماكن المزدحمة التي يكثر فيها النساء، كالأسواق والجامعات وغير ذلك، ومن هذه المثيرات القنوات والمواقع الإباحية والمجلات الماجنة والأغاني والقصص الغرامية وبرامج التلفاز التي لا تكاد تخلو من هذه المثيرات في ساعة من الساعات، واجب عليك أيها المسلم أن تنظف هاتفك وتلفازك من كل قذر ومن كل دنس فقد تموت وتلقى الله وتبقى هذه السيئات من بعدك ويبقى عليك ضررها ووزرها، واجب عليك الآن أن تسارع إلى تطهير وتنظيف بيتك من كل ما يثير الفتنة ويهيج الشهوة ويدعو إلى المحرم وأنت تعلم ذلك جيدًا، فاتق الله وسارع إلى ما دعوتك له فإنه والله خير.

سادسًا- مراقبة الله والحياء منه سبحانه:

إن عاقبة السوء سوء، إذا ما استقر في قلب المؤمن أنه بارتكابه لهذه السيئات فإنه يسخط ربه وخالقه القادر على عقابه في أية لحظة، بل قد يأخذه أخذ عزيز مقتدر وهو على ذنبه، وإذا استشعر حاله في قبره، ويوم القيامة ومروره على الصراط كل ذلك يدفعه إلى العفة، وكذلك الحياء من الله يمنع صاحبه من ارتكاب المخالفات ويردعه عن الفواحش، قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الحياء لا يأتي إلا بخير**»(٣).

---

(١) رواه البخاري [٥٢٣٢] ومسلم [٢١٧٢].

(٢) رواه الترمذي [١١٧١]، وصححه الألباني في الصحيحة [٤٣٠].

(٣) رواه البخاري برقم [٦١١٧]، ومسلم برقم [٣٧].

سابعًا- معرفة أن في العفة صيانة للعرض والدين:

من حفظ أعراض المسلمين حفظ الله عرضه، ومن عبث بأعراض الناس هُتِكَ عرضُه، والجزاء من جنس العمل فمن أراد حفظ عرضه فليحفظ أعراض الناس وكل دَيْنٍ لا بد له من وفاء، وَدَيْنُ الأعراض يكون وفاؤه من الأعراض.

يا هاتكًا حرم الرجال وتابعًا ... طرق الفساد فأنت غير مكرم

من يزنِ في قوم بألفي درهم ... في أهله يزني بربع الدرهم

إن الزنا دَيْنٌ إذا استقرضته ... كان الوفا من أهل بيتك فاعلم

ولقد حرم الله عَزَّوَجَلَّ مجرد حب إشاعة الفاحشة وتَوَعَّدَ من أحبوا فقط انتشار الفواحش بالعذاب الأليم في الدنيا والآخرة، فكيف بالداعين إليها والحريصين عليها والغارقين فيها، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النور: ١٩].

اللهم طهِّر قلوبنا واحفظ أعراضنا، واحفظ شباب المسلمين من الفتن ما ظهر منها وما بطن، وخذ بنواصيهم إلى الحق والهدى؛ إنك يا ربنا على كل شيءٍ قدير.

❁ ❁ ❁